

الأدب العجائبي: الوظيفة والمفهوم

أ.د/ بوجمعة بوبعويو.

جامعة باجي مختار - عنابة

<u>Résumé:</u>	<u>ملخص:</u>
Cette étude consiste à faire la description sur terme : Fantastique à travers – quelques – dictionnaires arabes et étrangers ajoutée aux définitions accordées à ce terme dans les critiques littéraires qui se sont appuyées pour sa définition sur son mode d'utilisation dans le domaine littéraire.	تتعرض هذه الدراسة إلى تعريف مصطلح "عجائبي" Fantastique من خلال بعض المعاجم العربية والأجنبية إضافة إلى تعريفه من قبل بعض النقاد الذين استندوا في تعريفه وتقريبه إلى ذهن القارئ على كيفية استثماره .

ليس لفظ العجائبي حكرا على جنس أدبي بعينه، أو إنه مقتصر على حدود زمنية أو مكانية معينة، بل إنه يتواجد في التاريخ والسير والتراجم والقصص الديني، القصص الشعبي... إلخ. غير أن اللفظ - في حد ذاته - يشوبه شيء من الغموض والتداخل في علاقته بمصطلحات أخرى لها نفس المعنى أو قريب منه، ولذلك انطلاقا من الاختلاف في المرجعيات والرؤى، مما أكسبه شيئا من الزئبقية، فقد أصبح معناه متاخلا مع الغريب والمدهش والفتازي، فلم يعد بمنأى عن بعض الحقول المعرفية والاجتماعية، فضلا عن حضوره القوي في الأدب بعامة. فحين نتصفح بعض المعجمات العربية والغربية، قصد تحديد المعنى الاصطلاحي للفظ العجائبي، نجد أن:

"عجب: العُجب، والعجب إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده، وجمع العجب أعجاب، قال: يا عجبا للدهر ذي الأعجاب، الأدب البرغوث ذي الأنياب، وقد عجب

منه يعتجب عجباً، وتعجب واستعجب والاسم العجبية والأعجوبة والتعجب، والعجائب، ولا واحد لها من لفظها"¹.

وقد لا يختلف ما جاء في القاموس المحيط عما أشرنا إليه في اللسان إلا من حيث مفردتها وجمعها، كأن نجد أن: "عجب، العجب، والعجب إنكار ما يرد عليك لقة اعتياده، والجمع العجب أعجاب، قال: يا عجباً للدهر ذي الأعجاب، الأحذب البرغوث ذي الأنياب، وقد عجب منه، يعجب، عجباً، وتعجب، واستعجب، والاسم العجيب والأعجوب، والتعجيب: العجائب، لا واحد لها من لفظها"².

وقد لا يختلف ما جاء في القاموس المحيط عما أشرنا إليه في اللسان، إلا من حيث التفصيلات الجزئية كأن نجد: "العجب إنكار ما يرد عليك، كالعجب محرقة وجمعها أعجاب، وجمع عجيب عجائب، أولاً يجمعان، الأسر العجبية والأعجوبة، وتعجبت منهم، واستعجبت منهم، كعجبت منهم، وكعجبته تعجيباً، والتعجيب العجائب"³. وتلحق ياء النسبة بالعجائب، فيصبح "العجائبي"، ليدل على ما هو غير معتاد وغير مألوف؛ لذا نجد أن عجب من أو/دهش.

عجب حمله على العجب أدهشته To amze, astonish surprise, strike with

Miraculous-wonder magic ساهر، خارق، عجائبي، wonder or astonishment.

أما عجائبي: يأتي بالمعجزات⁴ Miraculus في حين يشير معجم "Le Petit Robert"

إلى تعريف العجائبي: Merveille:phénomène inexplicable أي أنه ظاهرة غير

مألوفة، ومنها الصفة عجيب = Merveilleux

ومن ثم، فإن العجائبي يعني ما لا يمكن تفسيره بطريقة طبيعية لكونه غير معتاد وغير مألوف أو فوق الطبيعي.

ويتداخل العجائبي مع الغريب، والمتخيل، وغير الواقعي، وفوق الطبيعي

Fantastique = fabuleux, imaginaire; irréel; surnaturel.

فحين نتعامل مع مثل هذا المصطلح معجميا، نلاحظ أن معانيه لا تخرج عن إطار ما هو غير مألوف ويدعو إلى الحيرة والدهشة والإعجاب، سواء أكان ذلك في المعجمات العربية أم الأجنبية، ولكنه سرعان ما راح يتطور بتطور الملفوظ الشفوي، فأضحى هذا العجائبي الذي يثير المشاعر ويأخذ الأبواب.

ولو ضربنا صفحا عن تلك المعاني المعجمية المتقاربة من حيث أشارتها إلى ما هو خارق ولا واقعي لنقف عند "العجائبي"، بصفته يحيل إلى إنتاج أدبي متخيل يمتزج فيه ما هو مدهش وغريب وفنتازي، مما يجعلنا نتساءل عما إذا كانت هناك خصيصة أو خصائص ينفرد بها هذا العجائبي، أم أن هناك تداخلا وتشابها بينه وبين المصطلحات الأخرى. وليس من السهولة بمكان الزعم بإمكانية تحديد المصطلح تحديدا دقيقا، ولكن يمكن - على الأقل - وضع تصور عن تحديد الأطر العامة التي ينضوي في إطارها هذا العجائبي.

وينفتح العجائبي - إذا - انفتاحا زئبقيا أمام تلك المطارحات الشعبية والمتخيلات الوهمية، مما يسمح بتوغله في المراجع التاريخية والدينية والثقافية: "مما مده بطاقة كبيرة وقنوات تنهض بتشغيل الحكي وتفعيل المتخيل... إضافة إلى أنه يتغير بتغير العصور والثقافات وتوجهات الرؤى"⁵.

وهكذا يسجل مصطلح "العجائبي" انتشارا ومقروئية واسعين، ولكن ذلك يتم ضمن تلك التعددية الاصطلاحية التي لم تتمكن من وضع تحديد متفق عليه لكل مصطلح كأن يقول أحد الدارسين: "يمكن تعريف الاندهاش أو الإعجاب بأنه الحيرة التي تستبد بالإنسان لسبب عدم قدرته على معرفة علة الشيء أو سببه، أو الطريقة التي ينبغي اتباعها للتأثير عليه، وينتهي الاندهاش أو الإعجاب بسبب الألفة والرؤية المتكررة. أما الغريب في الظاهرة المدهشة التي تصل نادرا، وتختلف عن العادات المعروفة والمناظر المألوفة"⁶.

فنحن هنا - في الواقع - لسنا أمام نظرة نقدية تحاول أن تحدد مفهوما نقديا أو اصطلاحيا بقدر ما نحن أمام تقديم بدائل لمصطلح آخر، وإلا كيف نجمع بين الدهشة والحيرة والإعجاب التي تظل فوق الاستيعاب، وكيف ينتهي كل ذلك بسبب حصول الألفة والرؤية المتكررة للعجيب، ثم يأتي الدارس على الغريب الذي يسميه بالظاهرة المدهشة التي تحصل نادرا وتخالف العادات والأعراف والمناظر المألوفة. فلتن كنا لا نعترض على الغريب كما أورده الدارس، فهل لنا أن نعرف كيف يصبح العجائبي مألوفاً وفي متناول المعرفة الإنسانية بعد التكرار والألفة؟

لعل الأمر يتعلق بتلك الطاقة الإنسانية الهائلة المعبأة بالمتخيل المخزن في الذاكرة الإنسانية الفردية والجماعية، وكيف يتحول ذلك المتخيل إلى مسارات أدبية عجائبية قد لا تنحصر في بوتقة عقلية معينة، ولكنها تعلن عن ذلك الانفعال والانبهار الذي يعتري المتلقي بحيث يذهب به في أجواء خيالية يمتزج فيها الديني بالفلسفي بالميتافيزيقا دون القبض على حقيقة الأسباب والنتائج المحسوسة، لأن الإنسان يظل عاجزا عن إدراك ما هو غيبي أو ما ورائي أو ما هو فوق إدراك الإنسان بعمامة.

ولا ريب أن القصص الديني، وكتب السيرة، والقصص الشعبي حبلى بذلك العجائبي الذي يصادفنا في ألف ليلة وليلة، والسيرة الهلالية، وفي غيرها من السير والحكايات ليمثل بذلك ذاك التراكم الهائل من المتخيل السردى الذي أبدعه خيال الإنسان على أثر انفعاله بما يحيط به واندھاشه من مختلف الطلاسم التي تتجاوز مداركه. ومن ثم، فقد تنوع هذا العجائبي، وحصره أحد الدارسين فيما يلي:

- يرتبط العجائبي بالماضي والغبيبي، وبما فوق الطبيعي وبالكرامات والمعجزات.
- يتخذ من الأحلام والرؤى سبيلا للبناء، أي أنه ينطلق دوماً مما هو غير واقعي.
- يعتمد على خلق المفارقات والسخرية من المألوف الواقعي عبر المكاشفة والخارق والتحول والتضخيم.

وإلى جانب مكونات أخرى تأسيسية، يتموضع العجائبي في السرود القديمة بنية شديدة الخصوصية.

ويأبى صاحب المعجم الفلسفي إلا أن يجعل من العجائبي مرادفا للميتافيزيقا، حين يقول: العجيب *fantastique* يطلق اليوم على كل فاعلية خاصة بتلاعب الأفكار أو على كل رغبة طارئة لا تستند إلى سبب معقول.

ويقدم تودوروف تعريفا للعجائبي على النحو التالي: "العجائبي هو التردد الذي يحسه كائن لا يعرف إلى القوانين الطبيعية فيما يواجه حدثا فوق الطبيعي حسب الظواهر. إن مفهوم العجائبي إذا يتحدد بالنسبة إلى مفهومي الواقع والتمثيل"⁷.

وفي ضوء هذا التعريف يمكن أن نستشف أن تودوروف هنا لا يقدم تعريفا بقدر ما يقف عند العجيب الذي يحصره في ذلك التردد الذي ينتاب المتلقي والمتراوح بين الحيرة والدهشة في ضوء علاقة الواقعي بالتمثيل، فما دام هذا التمثيل يتجاوز حدود القوانين الطبيعية المتعارف عليها علميا وفيزيائيا، فإن العجائبي يتحدد وفق مفهومي: الواقعي والتمثيل.

وقد نخلص إلى ما انتهى إليه تودوروف الذي يرى أن الأدب العجائبي جنس قائم بذاته، جوهره التمثيل والتحرر من حدود العقل، إلا أنه سرعان ما يجمع بين العجيب والغريب حين يقول: "لا يمكن إقصاء العجيب والغريب عن تفحص العجائبي، فهما الجنسان اللذان يتراكب معهما"⁸.

أما وظائف العجائبية، فتتمثل الروافد الجوهرية التي يتسرب منها هذا الجنس القائم بذاته، ليعلم عن كثير من الحقائق، أو على الأقل ما يتراءى له أنه ذو قيمة في حياة البشر، ويقسمها تودوروف إلى ثلاثة وظائف في ظل الأدب بعامة، هي الوظيفة الاجتماعية، والوظيفة النقدية، ثم الوظيفة الأدبية.

ففيما يخص الوظيفة الأولى، يتوسل الأديب في محاولة تعبيره عن الواقع الاجتماعي بما هو فوق الطبيعي وفوق الواقع ليجعل منه ذريعة للتعبير عن تلك الحقائق الاجتماعية، فتكون بذلك العجائبية وسيلة كشف لا غاية، وهي قناع يسرد

من خلاله واقعا اجتماعيا بعينه، بغية نقده أو تغييره، لاسيما حين نضع في الحسبان ما يحيط بهذا الأديب من أدوات الرقابة والقمع، فيلجأ - في ضوء ذلك - إلى هذا اللون التعبيري الذي تتوفر فيه مساحة من الحرية في معالجة الموضوعات التي تمثل المحذور أو المسكوت عنه الذي يبلغ مستوى "الطابو".

أما الوظيفة الثانية، فتتعلق مثل سابقتها بنفسية الأديب الذي ينشئ أدبا عجائبيا وهو محاصر بمراقبة لصيقة وصارمة لما ينتجه إذا كان لا يتماشى وتوجهات السلطة، أو المجتمع، أو يتناقض مع بعض أهدافها من قريب أو من بعيد، فيحتال هذا الأديب في طرق تلك الموضوعات التي تدخل في المحذور إلى إسناد الأقوال والأفعال المراد تمريرها إلى الشياطين والمردة قصد النجاة من العقاب المحتمل.

وصفوة القول إن الأدب العجائبي، على اختلاف وظائفه وتعدد مستوياته السردية، ومدى ثرائه بما هو فوق الطبيعي وغير المؤلف حسبما تنص على ذلك المعجمات العربية والغربية، فإنه في حاجة ماسة إلى دراسته وفق مناهج حديثة لتربنا ما به من كنوز خيالية، ومؤثرات أدبية واجتماعية لها قيمتها على المستوى الإنساني المعرفي وعلى المستوى التخيلي الذي لا يخلو من بنى سردية يمكن أن ينظر إليها على أنها ذات خصائص جمالية أسلوبية في تراثنا العربي قديمه وحديثه.

الهوامش والإحالات

- ¹ لسان العرب لابن منظور (أدب) مادة عجب، ط3، 1994، ص 581 - 583.
- ² القاموس المحيط للفيروز آبادي، فصل العين، باب الياء، دار الجيل، بيروت، ج1، ص 105.
- ³ المورد، قاموس (عربي-إنجليزي)، دار العلم للملايين البعلبكي، ص 750.
- ⁴ القاموس العصري، عربي- إنجليزي، المطبعة العصرية، القاهرة، ط9، ص 424.
- ⁵ حمادي المسعودي، العجيب في النصوص الدينية، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، العدد 13، 14، سنة 1971، ص 28.
- ⁶ محمد أركون، الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط2، 1992، ص 189.
- ⁷ تزفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، مراجعة محمد برادة، دار شرقيات للنشر، القاهرة، ط1، 1994، ص 44.
- ⁸ Tzvetan Todorov, Introduction à la littérature fantastique, Col. Points, littérature, Ed. du Seuil, Paris, p. 166.